الفصل الحادى عشر

الصعود إلى القمة

* عندما طلعت الشمس فى راحة يده .
* راهب الفكر الذى عاش على طريقة كهنة المصريين القدماء .
* أمضى حياته متنقلاً بين الفنادق والبنسيونات والمقاهى .
* عندما زاره سارتر وسيمون دى بوفوار فى مكتبه .
* نبوءة بنشوب حرب ثالثة .
* جائزة نوبل .

قمة عالية

الاقتراب من « توفيق الحكيم .. قمّة الفكر العربى » يتطلب جهدًا وعناءً ، لأنه يحتاج إلى مران وتدريب على تسلّق الجبال للارتفاع إلى قمة الفكر العربى ، وأنا أزعم أنه لا ينقصنى هذا المران والتدريب ، الذى أمضيت فيه ما يقرب من أربعين عامًا ، فى محاولات يائسة ، لكى أرتفع إلى تلك القمة الشامخة فى الأدب والفن والفكر .

والقمّة التى يتربع على عرشها توفيق الحكيم المرشح للفوز بأرفع جائزة عالمية ، وهى « جائزة نوبل » فى الأدب ، قمة عبارة عن صومعة أو محراب لراهب الفكر العربى المسربل دائمًا بمسوح الرهبان .

إنه برغم ما يخطر فيه من مجد وفخار كشيخ للفكر العربى فى الثمانينات من القرن العشرين ، تراه إنسانًا عاديًا بسيطًا ، شيمته التواضع وكرم النفس والسماحة والصفاء .

دائم الشرود والسرحان ، كأنه يفكّ الكون ويركّبه – على حدّ تعبيرة – هادئ الطبع ساكن النفس كصفحة البحر الساكن قبل العاصفة .

تشعر فى حضرته ، أنه ليس معك ، بينما ينفذ ببصره إلى أعماق الناس وجوهر الأشياء .

وقور فى جلال ، يخيل إليك وهو فى شروده وسرحان فكره ، أنه يحمل على كاهله هموم العالم كله ، كأنه « هملت » الذى يريد أن يصلح الكون .

يخيل إليك أنه يبدو دائمًا عابسًا متجهمًا ، بينما هو على العكس ، مرح غاية

المرح ، لكنه المرح الذى يمتزج بالجد ، والجد بالمرح .. المرح البرىء حينًا ، والساخر أحيانًا !.

يقيم عالم الفكر ويقعده حين يكتب ، بينما لا يحمل فى يده غير القلم الرصاص .

قامة معتدلة ، فهو ليس بالطويل أو القصير ، يمتاز بقوام رشيق ، لم يعرف البدانة فى كل أطوار حياته ، وجه جذاب الملامح ، تطالعك فيه حسنة كبيرة على الخدّ الأيمن ، جبهة عريضة ، وشفتان غليظتان ، وأنف شامخ فى كبرياء ، وعينان نفاذتان تشعان بنور الذكاء والعبقرية . شعر أسود فاحم كثيف وخطه الشيب فى سن الخريف ، وجعله كالتاج الذى يكلّل هامات العلماء واالمفكرين .

لقد حلق شاربه فى العشرينات على طريقه أهل الفن ، ثم أطلقه منذ اشتغل بالقضاء ، كما أطلق لحيته حينًا ، ويحتفظ الآن بشارب أبيض مستقيم .

ولما أقام فى باريس ، ظلّ حليق الشارب ، يرتدى طاقما كاملاً من الأزياء السوداء : المعطف والحذاء والقبعة العريضة المربعة الأركان المجّوفة من أعلى ، التى وصفها بأنها كانت تشبه طبق الحساء .

وارتدى الطربوش الأحمر القصير وهو طالب ، ثم عاد لارتدائه بعد أن استبدل به الطربوش الطويل ، منذ اشتغل أيضًا بالقضاء وحمل العصا التى لم تفارقه إلى اليوم . ثم خلع الطربوش بعد ثورة ٢٣ يوليو ، واستبدل به البيريه على اعتبار أنه يشبه الطاقية .

ويحرص على ارتداء البدل ذات الألوان الهادئة كالرمادى والبنّى والبيج والقمصان البيضاء ذات الياقات غير المنشّاة والكرافتات البسيطة غير الحريرية

خصوصًا من نوع البلاستيك ذات العقدة الجاهزة ، حتى لا تكلّفه عناءً فى الحلّ والعقد .

تحيرت يومًا فى تحديد لون بشرته ، تلك البشرة الصافية كاللبن الحليب .

كنت فى زيارته فى مكتبه بالطابق السادس بدار الأهرام ، وقد أحاطت به باقة من حسان الصحافة والأدب ، فى عمر الورود ، فانتهزت تلك الفرصة ، وهن ينظرن إليه فى إعجاب كأنه « شهريار » أو « هارون الرشيد » وسألتهن :

– ماهو لون بشرة الأستاذ ؟

فعدن يتأملنه من جديد فى فحص وتدقيق ، وقالت إحداهن :

– قمحى .

وقالت الثانية :

– رزى .

وقالت الثالثة :

– بل وردى .

فاعترض الحكيم على تلك الألوان ، وقال :

– لون بشرتى ، لا قمحى ولا رزى ولا وردى .

فقلنا جميعًا بصوت واحد :

– غلب حمارنا ياأستاذنا . فما هو اللون الصحيح ؟

فنظر إلى طلاء جدران الحجرة ، وقال :

– الطلاء ده لونه إيه ؟

قلنا :

– كريم .

فنظر مرة أخرى إلى ستار النافذة البلاستيك الذى يرسل بصيصًا من اللون الأبيض ، وقال :

– أنا لونى مكون من هذين اللونين . كريم على أبيض » .

ومكتب الحكيم يطلّ على شارع الجلاء ، والمكتب فخم ، ليس عليه سوى القلم الرصاص ، ومجموعة تماثيل صغيرة الحجم من البرونز والمعدن والخشب لصديقه « الحمار » يتوسطها تمثال عاجى بنفس الحجم للكاتب الفرنسى موليير .

ويطلّ عليه من أعلى الحائط رسم حديث له بالزيت بالألوان الطبيعية بريشة صديقه الفنان صلاح طاهر .

والطابق السادس الذى يجلس فيه الحكيم هو طابق المفكرين والأدباء الذين لا ينقطعون عن زيارته يوميًّا ، كإحسان عبد القدوس وثروت أباظة ويوسف جوهر والدكتور زكى نجيب محمود ونجيب محفوظ ومصطفى بهجت بدوى وصلاح طاهر والدكتور يوسف إدريس والدكتور رشاد رشدى وأحمد بهاء الدين ومن الطوابق الأخرى عبد الله عبد البارى وإبراهيم نافع وكمال الملاخ وحمدى فؤاد وفتحى أبو الفضل ويوسف فرنسيس وصلاح جاهين والدكتور يوسف عز الدين عيسى والدكتور عبد العزيز شرف وأحمد بهجت وفتحى سلامة وفتحى العشرى .

راهب الفكر

لقد اشتهر بلقب « راهب الفكر » الذى أطلقه على نفسه فى رواية « الرباط المقدس » وأصبحت شخصية « راهب الفكر » علما عليه بعد أن خرجت من

صفحات الكتاب وتجسّدت على الشاشة من تمثيل عماد حمدى فى فيلم « الرباط المقدس » .

وقد رسم تلك الشخصية بقلمه فى استهلال الفصل الأوّل من الرواية ، فقال :

– كان فى عباءته وقلنسوته – يشبه حقًّا الراهب . هكذا كان يرتدى دائمًا وهو فى بيته ، ولعل هذا المظهر كان يتفق مع لون حياته ، تلك الحياة الهادئة بين الكتب والورق ، الراكدة كمداد المحبرة . ما كان لديه قطّ شىء يجرى ، حتى ولا أيامه ، فهى لتشابهها تبدو كأنها واقفة لا تسير أو أنها تجمعت كلّها واندمجت فصارت يومًا واحدًا لا يزول . ومع ذلك فقد كان هنالك سيل متدفّق يجرى منه بغير انقطاع ، ذلك هو فكره .

ويتحدّث عن حياته بين الكتب ، فيقول :

– لقد كان يلذّ له أن ينفق لحظاته الضائعة فى النظر إلى كعوب الكتب المصفوفة ، يقرأ أسماء مؤلفيها واحدًا واحدًا كأنهم جنود أبطال يستعرضهم بعد النزال ، فكان لا يملك نفسه من الصياح فى القاعة الساكنة : « هؤلاء حركوا العالم ، وساروا بالإنسانية . إنى أشعر بينهم وأنا فى هذه العزلة والركود أن كلّ شىء حولى ساكن خلا الفكر . ما الفكر إلا الحركة الكبرى .

أقرب القول فى هذا الرجل أنه كان يذكرنا بصورة رجل الأدب ، كما وصفه توماس كارليل : « نور الدنيا وكاهنها الذى يقودها ، كأنه عمود النار المقدس فى جوّها المظلم خلال هباء الزمن وفضاء الأحقاب .

وهو يعيش حياته على نظام كهنة المصريين القدماء من حيث الزهد فى الطعام وملذات الحياة ، فيقول عن « راهب الفكر » فى تلك الرواية :

– على أن هنالك فائدة كبرى جناها من هذه المزية ، مزية « مقاومة النفس » كما كان يسميها ، إن نظام البساطة الذى أخذ به نفسه فى شئون الدنيا قد حال بينه وبين الترهّل والهرم الباكر . مامن أحد يراه إلا قدّر له سنًّا أقل من سنّه الحقيقية . لقد كان فى وجهه نضارة شاب فى الثلاثين ولولا خط الشيب برأسه لما عرفت الأيام كيف تنال منه . كان شأنه فى ذلك شأن كهنة المصريين القدماء الذين وصفهم « بلوتاركس » بقوله : « إنهم كانوا يراعون نظامًا دقيقًا فى مأكلهم ومشربهم ، لأن القداسة والصحة يسيران فى نظرهم جنبًا إلى جنب ، فكانوا لا يسرفون فى أكل اللحم ، ولا بعض الخضر ، ولا حتى فى شرب ماء النيل ، لزعمهم أن الإكثار من مائه يسمن كما يدسم الأرض .

إن البدانة كانت عندهم من عيوب الكهانة ، فهم كانوا حريصين على أن يغلّفوا نفوسهم بأجسام نشيطة خفيفة ، حتى لا يختنق ما فى أرواحهم من جوهر إلهى تحت ثقل المادة الفانية .

مامن كاهن مصرى كان بدينًا ، ومامن كاهن مصرى عرف الناس حقيقة عمره ، فهم دائمًا نحاف الأجسام يبدو عليهم الشباب دائمًا ، كأن الآلهة قد منحتهم مقاومة الزمن . والحقيقة أنهم ما أعطوا قوة مقاومة الزمن ، بل أعطوا قوة مقاومة أنفسهم . ومن ظفر بالأخيرة ، فقد ظفر بالأولى . وهذا ما فهمه « راهب الفكر » وعمل به .

ووصف نفسه فى حديث له مع إحدى السيدات فى رواية « حمار الحكيم » فقال :

– إنى مثل الثعبان الكسول فى أيام الشتاء ، يظلّ ملتفًّا حول نفسه وقد برد دمه وتجمد ، فلا توقظه إلاّ وخزة تخرج من فمه السم ، هنالك مواضيع إذا

وخزنى فيها واخز لابدّ أن أفرز كلامًا ، ثم أعود بعدها إلى صمتى ووحدتى والتفافى حول نفسى .

– إنى بناء قائم على ماء جار ، وصرح مشيد فوق رمال . لا شىء عندى قابل للبقاء أو صالح للاستمرار . إنى لا أقدس شيئًا ولا أحترم أحدًا ، ولا أنظر بعين الجدّ إلا إلى أمر واحد : الفكر .. هذا النور اللامع فى قمة هرم ذى أركان أربعة : الجمال والخير والحق والحرية . هذا الهرم هو وحده الشىء الثابت فى وجودى .

لقد اختلف فى أمرى من قديم كلّ من عرفنى ، ومازالوا يختلفون . فأنا عند البعض بسيط ساذج وعند الآخرين ماهر ماكر . قال لى ذات مرة أحد الملاحظين لأمرى : « عجبًا لك . إنك تجهل الأشياء التى لا ينبغى أن يجهلها أحد ، وتعرف الأشياء التى لا يعرفها أحد .

وقالت لى صاحبة منزل أقمت فيه أيامًا : اسمح لى أن أستوضحك أمرًا : أحاول عبثًا أن أستقر على رأى فيك ، إنه ليبدو عليك أحيانًا أنك لا تعرف ما تريد . بل يبدو عليك ، وأرجو أن تغفرلى هذا التعبير ، أنك قليل الفطنة بسيط التفكير ، ولكنك أحيانًا أخرى تبدو فوق مستوى من رأيناهم جميعًا هاهنا ، إدراكًا وتيقظًا وتفكيرًا . أنت ولاشك لغز من الألغاز .

وفى كل مكان أسمع من يقول عنّى ذلك . من أجل هذا فقدت حياتى ذلك الوضوح الذى تقام عليه الحياة الثابتة .

ولقد تأثرت بهذا الغموض فى تكوين شخصيتى ، فجعلت أطيل فى البحث فى ذلك أيضًا ، فجنحت إلى التأمل الطويل منذ الصغر . وتقدمت بى الحياة . فكنت فى كل طور من أطوارها أستوثق من أن الطبيعة قد تردّدت هى الأخرى

فى أمر تسليحى بهبات واضحة قاطعة .

لقد كان شأنى دائمًا شأن « جحش » عثرنا عليه ثم أطلقنا عليه اسم « الفيلسوف » خرج إلى الحياة منذ يومين فانصرف عن زجاجة اللبن إلى مرآة الخزائن يتأمل نفسه .

أنا كذلك انصرفت منذ عهود الصبا عن مباهج الحياة التى تغرى الشباب والفتيان إلى تلك المرآة التى أرى فيها نفسى . على أنه تأمل ، هو أبعد ما يكون عن تأمل « نرسيس » لنفسه فى مياه الغدران . لم يكن تأمل الزهو والافتتان بل تأمل الباحث الحيران . إنى من أشدّ الناس تنقيبًا فى أنحاء نفسى ، لأنى أعتقد أن الطبيعةِ لم تسخ على ، فلم تمنحنى لمعانًا ولا بريقًا . إنى جسم معتم أضئ – كما تقولين – بما ينعكس على أديم نفسى من أفكار . ولا شىء غير ذلك . أما فى الحقيقة فأنا أرض قحلاء جرداء ، كلها صخور وأحجار ، لا يمكن أن يأنس إليها آدميون .

فإذا أنفقت الوقت بحثًا وتنقيبًا فى أرجاء نفسى الموحشة المقفرة ، فإنما يدفعنى دائمًا إلى ذلك الأمل فى أن أستكشف فى بعض شعابها معدنًا نفيسًا له شىء من البريق .

ووصف نفسه على لسان « محسن » فى عصفور من الشرق فقال :

– إنه يعرف نفسه ، فهو كصندوق مقفل غير مطعم بذهب ولا فضة وغير موشى بألوان ولا برسوم ، ولا تبهر هيئته ولا تغر . ولكنه طول الجوار قد يحمل الصادف عنه ، على النظر إليه واستطلاع ما فيه . وهو أن فعل فلا شكّ واجد فى قلبه بعض تلك اللآلىء التى يبحث عنها الناس .

الإغراب

كتب إلى صديقه أندريه فى رسالة من رسائل « زهرة العمر » عن استغراقه فى الخيال والولع بالإغراب ، فقال :

– إن خيالاتى الكثيرة التى أحيا بينها تارة الآلام ، –كما تقول– وتارةً الأحلام التى لن تتحقق يومًا . هذا صحيح . وأكثر منه ياأندريه أن خيالى مع الأسف ليس من نوع الخيال المثمر ، الذى خدم الشعراء والكتاب ، بل هو نوع من الخيال ، الذى أضاع فى وديانه السحيقة كثيرًا من عاثرى الحظ ، الذين حسبوا أنفسهم شعراء زمنًا طويلاً ، وهم ليسوا بشعراء .

وهنالك شىء آخر أخالك لم تلتفت إليه ، وهو طبيعتى التى تميل إلى عدم الأخذ بما يأخذ به الناس جميعًا من أوضاع ، هربًا من الوقوع فى الابتذال وشغفًا جنونيًّا بالتميز والإغراب ، ففى لبسى لا أرتدى كما يرتدى الآخرون ، ولا أدخن ، لأن التدخين عادة عامة ، وربما دخنت لو انقطع الناس عن التدخين . لا أهدى إلى حبيبتى الأزهار الجميلة ، ولا العطور اللطيفة ، بل أهدى إليها ببغاء فى قفص ، ولا أكتب إليها مباشرةً عن الحب ، بل أتبع طرقًا لن يتبعها عقلاء الناس .

وشغفه بالإغراب ، جعله يحلق شاربه تشبهًا بالفنانين فى العشرينات ، ويحمل العصا منذ دخل فى سلك القضاء ، ليظهر بمظهر الوقار . وارتدى الطربوش كتقليد للموظف الحكومى ، ثم ثار عليه وارتدى البيريه .

ويكره البروفات . فلا يحضر البروفات على مسرحياته أو أفلامه ، ولا يراجع

بروفات مؤلفاته ، ولا يذهب إلى بروفات الترزى ، ويقدم له بدلةً قديمة ليفصّل على مقاسها البدلة الجديدة .

وأطلق لحيته فى عام ١٩٥٧ ثم عاد وحلقها بعد فترة وجيزة .

وسئلت والدته عن رأيها فيه ، فقالت :

– إنسان غريب الأطوار ، لا أحد يعرفه غيرى . وقد اتصف بالصمت الطويل منذ الصغر .

نجم الشاشة

وقد صورت الشاشة جوانب كثيرة من شخصيته وسيرة حياته بقلمه أو أقلام الآخرين . فمثل عماد حمدى شخصيته فى دور « راهب الفكر » فى فيلم « الرباط المقدس » ومثل أحمد عبد الحليم شخصيته فى دور « وكيل النيابة » فى فيلم « يوميات نائب فى الأرياف » ومثل عصام العشرى شخصيته فى دور « محسن » فى « عودة الروح » على الشاشة الصغيرة بعد أن مثله عصمت عباس على المسرح .

وبأقلام الآخرين مثّل زكى رستم دوره فى فيلم بعنوان « عدو المرأة » ثم مثل رشدى أباظة نفس الدور فى فيلم ثان يحمل ذات العنوان من تأليف محمد التابعى .

وأخرج الإذاعى سمير عبد العظيم مسلسلاً فى ثلاثين حلقة عن حياته فى الإذاعة عن كتاب كمال الملاخ « الحكيم بخيلاً » الذى أعدّ بعد ذلك للإنتاج السينمائى .

ورشح نور الشريف لتمثيل شخصيته أيضا فى فيلم عن روايته « عصفور من

الشرق » من إخراج يوسف فرنسيس .

وأخرج عنه المخرج التسجيلى أحمد راشد فيلمًا وثائقيًّا صورت مناظره بين مصر وفرنسا .

وتبارى مشاهير المصورين فى تصويره فى لوحات اشتركوا بها فى الكثير من المعارض مثل اللوحتين المشهورتين لأحمد صبرى وصلاح طاهر .

أما رسامو الكاريكاتير من أمثال صاروخان ورخا وبيكار وصلاح جاهين ، فقد تفننوا فى تصويره فى لقطات ضاحكة بالعصا والبيرية وفى صحبة « الحمار »

الشمس تشرق فى طالعه

واستطلع قارئ الكف مستقبله فى يده أيام الشباب ، وقال له كما جاء فى كتاب « زهرة العمر » :

— أنت روحانى ، طبيعتك روحانية وهنا طلبت منه تفسير هذه الكلمات ، فقد عجبت لنطق مثله بمثلها ، ثم نعتى بمدلولها وهو لا يدرى عنى شيئًا ، ولم أتكلم طوال الوقت إلاّ بالتافه من كلمات المجاملة . وكنت دائمًا أصغى إلى الآخرين . ولعلى كنت أصغر الحاضرين شأنًا وأقربهم إلى هيئة الحمق والبله فأجاب :

— « لا تسألنى تفسيرًا . لا تسألنى فى غير ماأرى : أمامك الشمس .. الشمس لا ترى فى كف ولا فى كل طالع ، الشمس أراها فى نجم حضرتك ؟

ولكن حضرتى ، ماكان يعنيه بالضرورة غير مسألة أكل عيشه وكسب قوته فأسرعت قائلاً :

– وماذا غير ذلك ؟ فمضى يقول :

– رغم أنك من حيث الثروة والسعادة قنوع . سعادتك فى القناعة ، والغنى عندك قناعة . يعنى لن يكون غناك بالمال . ثم قال :

– أنت تحب العزلة . أنت مثل رجل منقطع .

وفى « سجن العمر » يأخذ على نفسه ، انزواءه من عقد صلات حتى مع من كان يجب أن يتصل بهم من أدباء وفنانين ، ويعلّل ذلك قائلاً :

– لم أفعل ذلك زهدًا ، بل انزواءً جثمانيًّا غريزيًّا غير مفهوم . إنى أجفل دائمًا من أىّ صلة جديدة ، لا أفتح نفسى بسهولة لأىّ طارق . قلّة نشاطى وحركتى هى دائى العضال . وقد أضاع هذا الداء علىّ كثيرًا من الفرص والمتع فى الحياة والفن . إنى أعمل وأقعد عن السعى لإنجاز العمل . أنشط إلى العمل وأكسل عن النجاح .

إنى فى أغلب أحوالى قاعد هامد ، فى حوار دائم مع نفسى ، فى حركة دائمة داخل عقلى . أفكك الكون وأركبه . وكلّ شىء فى العالم والمجتمع يهمنى ويهزنى ويحركنى . ولكن جسمى لا يتحرك كثيرًا . إن لدىّ القدرة على أن أجلس الساعات بمفردى لا أصنع شيئًا .

وكثيرًا ما يدهش الداخل علىّ ، إذ يرانى أحيانًا قاعدًا ، ليس أمامى كتاب أو ورق أو قلم ، ولا حراك بى كأنى تمثال من حجر . على أنى ما انعزلت قط ولا انزويت إلا بالجسم وحده .

وتحدث فى كتاب « حمار الحكيم » عن عادة الشرود والسرحان عندما قصّ عليه المخرج السينمائى الأجنبى قصة الفيلم الذى يكتب حواره فقال :

– جعل يسرد لى حكايةً طويلةً عريضة لم أميّز لها رأسًا من ذنب .

وأنا بطبعى غير قادر على الإصغاء إلى متكلم أكثر من خمس دقائق ، أهيم بعدها فى وديان وأوغل فى سحب ، وأنسى وجودى ووجود من معى . إنه شرود طالما حال بينى وبين الاستمتاع بالمحاضرات القيمة . وهو يفاجئنى حتى فى دور السينما والتمثيل ، بل وفى مطالعة الكتب .

ويخيل إلى أن الأصل فى فكرى أنه كالغاز الشائع يقتضينى دائمًا الجهد لجمعه وحصره ، فإذا توانيت قليلاً انفرط منى وعاد إلى حالته الأولى ، لذلك لم أفطن للرجل أمامى إلا وهو يوجه إلى الكلام وقد فرغ من قصته فيما يظهر .

وكتب فى « سجن العمر » عن إصابته بالقلق ، بعد أن برىء من داء الحمى الذى كان ينتابه كلما شاهد منظر الجنازات فى أيام الطفولة ، فقال :

— لكن داءً آخر بدأ ينمو عندى بنمو العقل : إنه القلق ، لم أستطع منه فكاكًا طول عمرى ، إنى فى حالة قلق دائم طول حياتى ، حتى عندما لا أجد مبررًا لأىّ قلق ، سرعان ما ينبع فجأةً من تلقاء نفسه . هذا القلق الروحى والفكرى لا ينتهى عندى أبدًا ولا يهدأ . إنى سجينه سجن الأبد . ولا أدرى له تعليلا .

وقدم كتاب « شجرة الحكم » بقوله :

— « شجرة الحكم » فصول نشرت فى الصحف عام ١٩٣٨ وما بعدها وقد أثار نشرها غضب الأحزاب جميعها ، وهى نتيجة لا نحمد عليها ، فإن الغاية المنشودة دائمًا هى أرضاء الكلّ ، فإذا تعذر هذا الأمر فلا أقل من إرضاء البعض .

أما إثارة السخط العام ، فهو عمل لا يقدم عليه إلا الحمقى ومن فى حكمهم ، وأنا من هؤلاء ولا شك ، فقد فاتنى فى دنياى ، حتى اليوم لذّة لم

أذقها قط . تلك هى لذّة من ينقد وظهره مسند إلى حائط حزب . ذلك الحائط الذى يضمك ويحميك ويتلقى صدره الواسع عنك ومعك أكثر سهام الأخصام . كنت ذلك الذى يصيب فلا يبسم له أحد ، ويصاب فلا يسعفه أحد .

سجين الطبع الموروث

وأطلق على كتاب « سجن العمر » هذا الاسم ، الذى يروى فيه مذكراته ، على اعتبار أنه سجين التقاليد العائلية وسجن المجتمع .

فقد تأرجح بين طباع أبيه وأمه ، اللذين يقول عنهما :

– أبى دقيق يخرج المال من جيبه بحرص ، برغم أنه لم يكن بخيلاً وإنما دقيقًا ، ووالدتى سخيّة دائمًا بطبعها تخرج المال والكلمات بيسر ، وأنا أكتب المسرحية لأنه فن أساسه البخل فى الكلمات .

ويصدر الكتاب بتلك العبارة :

– أملى أكبر من جهدى ، وجهدى أكبر من موهبتى ، وموهبتى سجينة طبعى ، ولكنى أقاوم .

وقال فى المقدمة : « هذه الصفحات ليست مجرّد سرد وتاريخ لحياة ، إنها تعليل وتفسير لحياة . إنى أرفع فيها الغطاء عن جهازى الآدمى ؛ لأفحص تركيب ذلك المحرك الذى نسميه الطبيعة أو الطبع ، هذا المحرك المتحكّم فى قدرتى الموجّه لمصيرى .

من أىّ شىء صنع ؟ من أى الأجزاء شكّل وركّب ؟ . . لنبدأ إذن من

البداية ، من يوم وجدت على هذه الأرض ، كما يوجد كلّ مخلوق حيّ بالميلاد من أب وأم .

ومادمنا لا نستطيع أن نختار والدَيْنا . ومادمنا لا نستطيع أن نختار الأجزاء التى منها نصنع ، فلنفحص إذن هذه الأجزاء التى منها تكوننا ، فحصًا دقيقًا صادقًا ، ولا نتحرج من الخروج قليلاً عمّا اعتدنا فى بلادنا من وضع الأهل والآباء داخل قوالب جامدة وأطر ثابتة لصور الكمال والورع والصلاح إلى حدٍّ يحول دون أىّ تحليل إنسانى . لابدّ إذن من بعض الشجاعة والصراحة لنعرف على الأقل شيئًا من تركيب طبعنا ، هذا الطبع الذى يسجننا طول العمر .

ويضيف فى « سجن العمر » عن سجن الطبع من الموروث عن الأهل فيقول :

– لم يكن والدى يكره الأدب فى حدّ ذاته ، أو يزدريه فى قرارة نفسه فهو مازال يحتفظ بحبّه القديم له . ولطالما سمعته فى خلوته يترنم بأبيات من شعر الجاهلية يدلّل بها على أمر من الأمور ، أو تصرّف من التصرفات ، أو يصف بها شخصًا من الأشخاص . حقًّا لم ينظم بيتًا واحدًا من الشعر منذ تزوّج . فقد كان كلّ نظمه وهو شاب أعزب ، ولست أدرى لماذا لم أهتم بجمع ما نظم . ربما لأنى لم أكن أعلم أنى سأكتب عنه يومًا أو عن نفسى . على أن الذى يخيل إلىّ هو أن شِعر والدى ربما كان يتجه أكثره إلى الحكمة ، ليس لأن العواطف لا تهمّه ، على العكس ، لقد كان رحيمًا إنسانيًّا تحت مظهر جادٍّ من الرزانة والاتزان . لم يكن فيّاضًا بالعاطفة جيّاشًا بالشعور المتفجّر كزبد البحر العاصف كوالدتى . فقد كانت له القدرة على أن يفصل عاطفته عن عقله . كان كلّ شىء عنده – حتى أحبّ الأشياء وأقدسها – يخضع لميزان عقله ، وفحصه ماله

وما عليه بالحقّ والعدل . على عكس والدتى التى تتملّكها العاطفة ولا تعرف الفحص ولا الميزان . فهى الانطلاق والإغراق ، إما حبّ فيّاض وإما كره ما حق . لا وسط عندها ولا اعتدال . لكن نفس والدى مع ذلك كانت شيئًا صافيًا مستقرًّا مختفيًا تحت سطح بحر هادئ . لم يكن يكثر الضحك . لم أره مرةً يقهقه . بل لم أسمع منه ضحكًا أو صوتًا يندرج تحت هذا الوصف ، كلّ ما رأيت وسمعت منه فى تلك المواقف التى تستدعى الضحك ، هو الابتسام والهمهمة الخفيفة .

إنه كان مدقّقًا حقا فى المال والكلام وفى كلّ أمر ، على نفسه وعلى غيره . يخرج من جيبه القرش والكلمة بحرص وفحص ، على نقيض والدتى السخيّة دائمًا بطبعها تخرج النقود والكلمات بيسر جارف وكرم صاخب .

وأمام هذا التناقض بين الوالدين ورثت أنا فيما أعتقد الحيرة بينهما . فأنا فى الغالب أميل إلى الاقتصاد والإمساك عن كلّ إنفاق ، سواء فى نقود أو كلمات . ولعلّ هذا من أسباب تفضيلى المسرحية ، فهى فنّ اقتصاد بخيل . الكلمات فيها محسوبة بدقّة ، والوقت فيها مقيّد والحيّز فيها محدود . لا محلّ فيها للإسراف والانفلات . غير أنى أحيانًا تظهر علىّ نوبة انفلات خاطفة أو إسراف فى القول والمال مفاجئ ، لا ألبث أن أفيق منه فأمسك ثم أنطلق فأمسك . كما تنطلق منى أحيانًا غضبة مفاجئة أو انفعال ملتهب مباغت أو تدفّق كلام متحمّس فأفطن إلى نفسى وأهدأ بعدها ثم أعود وهكذا ، إنه الصراع بين والدى ووالدتى فى أعماق نفسى ، إنى دائمًا بين شدٍّ وجذب ككفّتى ميزان فى كلّ شىء .

على أن والدى برغم ذلك كان ذا نخوة ومروءة . خدم أناسًا كثيرين دون أن يعلموا . أو تعلم يده اليسرى بما صنعت يده اليمنى .

كان لا يحب أن يلقى الضوء على شخصه ، أما والدتى فعلى النقيض ، معتدة بنفسها تحبّ الضوء وتكره الخمول والظلام ، وبين هذين النقيضين ورثت كذلك حيرةً بين الرضى بالضوء والنفور منه . دون أن أدرى لماذا أرضى ولماذا أسخط . بل لماذا أبتعد عن المآدب العامة والحفلات والدعوات والاجتماعات .

ويعتقد الحكيم أن اشتغاله بالأدب جاء تحقيقًا لرغبة أبيه المكبوتة ، فلو اشتغل بالأدب لرفع عن كاهله كلّ هذا العبء ، ويوضّح ذلك فيقول :

– لقد ألقى والدى إذن على كاهلى أنا ما لم تهيئه له ظروفه هو أن يحمله ، فما أنا إلّا سجين رغبته هو التى لم يحققها ، بل إنى سجين أشياء كثيرة أورثنى إياها فيها الطيّب وفيها الردئ ، كما ورثت عن والدتى خيرها وشرّها ، فهى طيبة القلب ولكن فيها روح شرّ ، خصوصًا مع المعتدى . غير أنها لا تعرف الخبث إطلاقا ، فهى صريحة ، صراحةً متحديةً أحيانًا ، ولا تطيق أن تخفى فى صدرها شيئًا . أمّا والدى فهو طيّب نادر الشر ، لكنه كثير الخبث ، قليل الصراحة ، وقد أخذت أنا من كل هذا بنسب متفاوتة .

هذا السجن الذى أعيش فيه من وراثات كأنها الجدران ، هل كان من الممكن الخلاص منها ؟ حاولت كثيرًا كما يحاول كلّ سجين أن يفلت ، ولكنى كنت كمن يتحرك فى أغلال أبدية .

وبدت المأساة لعينى عندما خيّل إلىّ يومًا وأنا أحلّل نفسى ، أنى لا أعيش حياتى إلّا فى نسبة ضئيلة ، أما النسبة الكبرى فهى تلك العجينة من العناصر المتناقضة التى أودعت تلك النطفة التى منها تكونت . والنسبة الضئيلة التى تركت لى حرةً من حياتى قضيتها كلّها فى الكفاح والصراع ضدّ العوائق التى وضعها أهلى أنفسهم فى طريقى ، ومن خلفهم المجتمع كلّه فى ذلك الوقت ، فوالدى

الذى أورثنى حبّ الأدب هو نفسه الذى يصدّنى عن الأدب ، ووالدتى التى أورثتنى الإرادة تقف بإرادتها دون رغبتى الفنية . حريتى الباقية لى إذن هى فرصتى الوحيدة وسلاحى الوحيد فى مقاومة كل تلك العقبات . وحريتى هى تفكيرى . أنا سجين فى الموروث ، حرّ فى المكتسب ، وما شيدته بنفسى من فكر وثقافة هو ملكى وهو ما أختلف فيه عن أهلى كلّ الاختلاف . ها هنا مصدر قوّتى الحقيقية التى بها أقاوم .

نعم تفكيرى وتكوينى الفكرى . هنا كلّ حريتى . الإنسان حرّ فى الفكر ، سجين فى الطبع .

لا يحبّ مظاهر الفخفخة والترف ، كتب إليه يوسف السباعى عندما كان فى باريس يخبره بأنه قد خصص له مكتبًا ضخمًا فى المجلس الأعلى للفنون والآداب ، بدلاً من حجرته المتواضعة .

فردّ عليه يقول :

– لا تهمنى الحجرة الكبيرة الفخمة . أكتفى بالحجرة الصغيرة . كل ما يهمنى شعاع الشمس . لا تخرج دواليب الكتب من الحجرة دع الكتب تؤنسنى » .

ولا يتحلّى أو يقتنى الذهب ، الذى يقول عنه :

– الجمهورية الفاضلة لا تعرف الذهب بل تعرف السلام ، لأنها لا تعرف الجشع . الكلّ فيها فرد واحد . الكلّ يقرأ ويفهم . الكلّ يلعب ويمرح . أما الذهب فإنهم يصنعون منه مصابيح الإضاءة فى الطرقات ، وحوافر الجياد . ياللسماء ؟ .

منزل كورنيش النيل

وقد أمضى حياته طالبًا فى القاهرة وباريس ووكيل نيابة فى الأرياف ، فى الإقامة فى الفنادق والبنسيونات ، ما عدا الفترة التى أقام فيها مع أعمامه فى المنزل الذى وصفه فى « عودة الروح » فى شارع سلامة بالسيدة زينب ، ثم فى حىّ شبرا عندما كان طالبًا فى مدرسة الحقوق ، حتى نقل من الأرياف إلى القاهرة مديرًا لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف فأقام فى مسكن مشترك مع صديقه حلمى بهجت بدوى فى الجيزة ، لكنه ما لبث أن عاوده الحنين إلى حياة الفنادق والبنسيونات ، إلى أن عثر فى ذلك الحين ، على شقته الحالية .

فهو يقيم الآن فى تلك الشقة بالطابق الخامس فى عمارة سيف الدين رقم ١٠٩٥ كورنيش النيل المجاورة لفندق النيل فى جاردن سيتى على النيل ، وهى شقة مكونة من ست غرف تواجه فندق الميريديان على الضفة الأخرى .

استأجرها عام ١٩٣٤ عندما كان مديرًا لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف ، وكانت لها قصة رواها فى رواية « حمار الحكيم » فقال :

– قضيت حياتى متنقلاً تائهًا ليس لى مكان معروف ، ولا عنوان دائم فما تركت فندقًا لم أنزله ، ولا نُزُلاً لم أهبطه . حتى ضجرت ذات يوم وتبرمت بهذه الحال ، واستنكفت أن أعيش دائمًا هكذا كما تعيش الفكرة الهائمة والروح الحائرة .

فأردت أن أجرّب الحياة المستقرة ، فى مسكن ثابت اخترته فى بقعة جميلة من بقاع القاهرة ، يشرف على النيل ، وترى من نوافذه القلعة والأهرام ،

وعنيت بأثاثه ، وأعددت فيه مكتبًا أنيقًا وخزائن للكتب ، واقتنيت سيارةً وأقمت بمفردى وحولى خادم وطاه وسائق .

فماذا حدث ؟ لم أتحمل الحياة فيه عامًا ، فقد كاد الخدم الثلاثة يذهبون بالبقية الباقية من عقلى . فالخادم النوبى جعل يكسر « أسطواناتى » الثمينة ، وتحرّيت أمره فعلمت أنه يتربص بى حتى أخرج فى الصباح ، فيدير « الجرامفون » ويضع فيه ما يقع فى يده من أعمال « بيتهوفن » و « موزار » ولا يحلو له تنظيف « الباركيه » وطلاؤه إلّا على هذه الأنغام .

أما الطاهى ، فقد كان يبدى الابتكار فى ألوانه فى أوّل الأمر . ثم قصّر وتراخى ، حتى صار الطعام ضربًا من « الروتين » لا طعم له ، فكنت أحيانًا أترك ما أعدّ لى من طعام ، وأذهب إلى مطاعم المدينة ، ولقد كان للخدم دائمًا طعام غير طعامى . هو فى أكثر الأحيان ألذ وأمتع . ولطالما أمرت الطاهى أن يحضر لى مما فى قدورهم ، ويحمل كلّ هذه الألوان التى نسقها تنسيقًا ظاهرًا دون أن يضع فيها روحه وقلبه .

ليس هذا كل شىء . فقد علمت أن الطاهى يعدّ على حسابى قدرًا كبيرًا من الطعام يقدّمه بالأجر إلى بوابى الجيران ، وأن الخادم يدعو زملاءه النوبيين كل عصر عقب انصرافى إلى تناول الشاى . ولم يدهشنى ذلك ، فإن نفقاتى بمفردى دون أن أدرى نفقات أسرة مكونة من عشرة أعضاء ، وما نبهنى إلى ذلك إلّا ضيف عابر . على أن كلّ هذا لم يغضبنى كثيرًا . إنما الذى أثارنى حقًّا هو مسمار صغير وجدته يومًا فى لون من ألوان الطعام ، كدت أزدرده . . هنالك لم أطق صبرًا . وادركت أن الخدم بلا رقابة هم من الأخطار العامة . وما ملكت نفسى عن الصياح فيهم يومًا : « والله لأتزوج لكم وأمرى إلى الله » .

أما السائق فلا يريد أن يصغى إلى رجائى كلما طلبت إليه ألّا يسرع . فأنا أبغض السرعة . إنها تمنعنى من التفكير ، ولطالما أكدت له أنى لست متعجلاً شيئًا ، ولا شىء فى الوجود يستعجلنى ، فأنا عدوّ الزمن والوقت ، ولم أحمل ساعةً قط . فالوقت عندى ليس من ذهب بل من تراب كأجسامنا . ولكنه ينطلق بى برغم ذلك ، كأنما يريد أن يطرحنى فى أسرع وقت ؛ ليخلص منى وينصرف إلى شأنه . فكنت أتركه أحيانًا يقف منتظرًا فى جانب الطريق . وأسير حرًّا حيث أشاء ! .

وحكايات طريفة أخرى عن هذا السائق أطرفها عندما كان يقوم معه بجولة المساء التى يتفرج فيها على واجهات دور السينما ، دون أن يغادر السيارة ، فيعود به إلى المنزل مبكرًا ، ويقول له : تفضل .

فينزل فى صمت .

ويمضى فى رواية تلك الحكاية فيقول :

– وقد شعر السائق بقدر هذه السلطة الواسعة فى يده فاستغلها استغلالاً آخر الأمر استغلال الطاغية لحرية الشعب . فكان إذا أراد أن يفرغ من عمله مبكرًا ويخلص إلى شأن من شئونه . طاف تلك الأماكن طوافًا سريعًا لا يكفى لإيقاظى من تأملاتى أو إخراجى من تردّدى ، ثم ردّنى إلى منزلى ، ولما تدق الساعة التاسعة ، قائلاً : « تفضّل » فأنزل دون أن أتنبّه لما حدث .

وفطنت ذات ليلة إلى إرادته . وكانت بى رغبة للسهر . فما تمالكت أن ثرت لحريتى المسلوبة وصحت :

– أنت غرضك تنوّمنى من المغرب ؟ قسمًا بالله العظيم ، ما أنا نازل ! .

وجعله ذلك يقرر أمرًا فى سبيل استرداد حريته من الخدم . فجمع حقائبه

وعاد إلى حياة الفنادق واستغنى عن السيارة . ووجد رجلاً إنجليزيًّا وزوجته استأجرا منزله بأثاثه وكلّ شيء فيه حتى المكتب .

ويصف ما انتابه من شعور بالانطلاق بعد ذلك فيقول :

– انطلقت بمفردى حرًّا من جديد . أتنقل فى الفنادق وأطوف بالشوارع وأقفز إلى عربات الترام وسيارات الأتوبيس ، وأختلط بالناس وامتزج بالجماهير ، فأحسست كأن الدم يعود حارًّا إلى عروق ، وأن قدمى قد فرحتا بلمس الأرض من جديد ، وأن فكرى قد عاد إلى انطلاقه ونشاطه مع السير الحرّ بالأقدام فى كلّ مكان ، وملاحظتى الناس فى الطرقات قد أخصبت ذهنى الذى حبس طويلاً خلف الزجاج . وجعلت أقف على بائع الذرة وهو يشوى كيزانه على عربته الصغيرة ، فأحادثه وأباسطه لا يتعجلنى سائق ولا تنتظرنى سيارة ، وأصغى إلى حديثه الطويل فى ذلك الليل مع كنّاس الجهة ، فأشترك معهما فى الحديث والسمر . ورأيت الكناس يسامر البائع طمعًا فى كوز ، والبائع لاهٍ عنه ، لا تخطر له العزومة على بال ، فإن الشغل شغل فى عرف التجار . فاشتريت أنا كوزين أعطيت الكناس واحدًا . فدعا لى الكناس الدعوات الصادقات ، وجعل يأكل ويقصّ علىّ مما عنده من أحاديث العامة البريئة اللذيذة ! .

وظلّ على ودّه القديم لمسقط رأسه فى الإسكندرية ، فلديه شقّة أخرى هناك فى العمارة رقم ١٧٧ شارع الكورنيش يمضى فيها الصيف كل عام .

وإذا تصادف أن قام برحلات صيفية إلى الخارج ، فإنه لابدّ أن يمضى شهرًا من الصيف فى طريق الذهاب أو الإياب من أوربا .

وكتب معظم رواياته فى المقاهى .

فى باريس كان يكتب على مقاهى « الدوم » فى مونبارنس ، و « الأوديون » بميدان الأوديون . و « سيرانو » فى حى مونمارتر ، و « داركور » على ناصية شارع جامعة السوربون .

وفى مصر كان أثناء إقامته فى دمنهور يكتب على مقهى « المسيرى » هناك ، وفى الإسكندرية فى مقهى « التريانون » ثم « بترو » و « الشانزليزيه » وفى شبرا فى مقهى « أوبرج شبرا » وفى القاهرة فى كافيتريا « الجمال » و « ريتز » .

ولعل علاقته بالمقاهى بدأت منذ كان يقيم فى شارع سلامة بالسيدة زينب ويجلس على قهوة « المعلم شحاتة » التى وصفها فى « عودة الروح » .

رواق الحكيم

وتحيط به مجموعة من الأصدقاء والمريدين فى « رواق الحكيم » الذى يجتمع ظهر كل يوم جمعة شتاءً فى كافيتريا فندق النيل بالقاهرة وصيفًا فى مقهى بترو ثم الشانزليزيه فى الإسكندرية .

تجد بينهم الدكتور حسين فوزى والوزير السابق إبراهيم فرج ونجيب محفوظ وثروت أباظة وإبراهيم الوردانى وأنور أحمد والمستشار محمد سعيد العشماوى وعبد الرحيم سرور وحسن عبد المنعم والمغنية السوبرانو أميرة كامل .

ونظرًا لمكانته الأدبية المرموقة زاره فى مكتبه بدار الأهرام الفيلسوف الوجودى جان بول سارتر وصديقته سيمون دى بوفوار أثناء زيارتهما إلى القاهرة .

وربطت الصداقة بينه وبين كبار المفكرين فى الغرب مثل عالم الفيزياء

الفريد كاستلر الفائز بجائزة نوبل .

وأهدى إليه انطون بوتيجيج رئيس جمهورية مالطة كتابه « قبس المصباح » لإبداء الرأى فيه .

وقد كان المؤلف حريصًا على معرفة رأى الحكيم ؛ لأنه كانت تجمع بينهما وقتئذ محنة واحدة ، وهى أن كليهما كان قد فقد وحيده فى سن الشباب .

وقد نشأت صداقة خالدة بينه وبين رفيق عمره الأديب الفنان الدكتور حسين فوزى منذ لقائهما الأوّل فى عام ١٩٢٤ فى مسرح حديقة الأزبكية كمؤلفين لفرقة إخوان عكاشة وقتئذ .

والصديقان قد جاوزا الثمانين ، وافتقد كلاهما الزوجة وأصبحا أشهر أرملين فى تاريخنا المعاصر .

يجمعهما العمل معًا فى دار الأهرام ، والغرام القديم بمدينة النور باريس التى يمضيان فيها أجازتهما السنوية عامًا بعد عام .

وتحدث فى كتاب « سجن العمر » عن أوّل لقاء بينهما فى ذلك التاريخ عندما كان يتردد على فرقة عكاشة فى مسرح حديقة الأزبكية ، حيث قدمه إليه الموسيقار داود حسنى ، فقال :

– أخرج لى داود حسنى من جيبه كراسةً ، قال لى إنها أوبرا جديدة عهد إليه بتلحينها . تناولتها من يده ونظرت فيها فإذا هى أوبرا فرعونية بعنوان « ليلة كليوباترا » تأليف حسين فوزى . وأردف داود حسنى مضيفًا أنها سلمت إليه بعد أن رفض كامل الخلعى تلحينها ؛ فقد كان نظمها لا يسير على طريقة الشعر كما يفهمه الخلعى الذى اعتاد القصيدة الغنائية على غرار شعر « فرح أنطون » وعلى نسق :

إن لم أصن بمهنّدى ويمينى ملكى فلست إذن صلاح الدين

كان نظم ليلة كليو باترا أحيانًا قصير الأبيات جدًّا ، لا تتعدّى فيه الشطرة كلمتين ، وطويل البحر إلى حدٍّ يملأ الصفحة . فلما رأى كامل الخلعى ذلك صاح منفجرًا :

– كيف يمكن تلحين ذلك ؟ هذا شريط ترموای وليس قصيدة .

وقد أبدى إعجابه بالأوبرا وبالنظم وشاركه فى ذلك داود حسنى ، الذى قام بتلحينها وعرضت على المسرح .

ويمضى الحكيم ويقول :

– وسألته عن مؤلفها الذى لم أكن سمعت باسمه ، فوعدنى أن يرينى إياه عندما يأتى إلى التياترو . وحدث بالفعل أن أشار لى داود حسنى ذات يوم إلى شخص يدخل من باب التياترو وقال :

– ها هو ياسيدى المؤلف . . فنظرت فوجدت شابًّا حليقًا يضع رباط رقبة على شكل أنشوطة عريضة جدًّا مما يضعه المصورون والموسيقيون « الرومانتيك » كان مظهره مظهر فنان حقًّا . أقرب إلى أن يكون رسامًا أو موسيقارًا . أما أنا فلم يكن لى من مظهر الفنان إلّا الشارب الحليق . تلك كانت علاقة الفن وقتئذ . إذ ما من أحد فى ذلك العهد كان يجسر على حلق شاربه إلّا الفنان .

ولست أذكر أنى حادثت حسين فوزى فى ذلك اليوم . فقد مرّ أحدنا بالآخر عن بعد ، كما تمر الأطياف البعيدة أو الظلال المنعكسة فوق الجدران . إلى أن تقابلنا فى باريس ونشأت بيننا الصداقة .

كان الدكتور حسين فوزى متخرجًا فى مدرسة الطب ، وينتمى إلى العلم ، وكنت أنا متخرجًا فى مدرسة الحقوق ، وأنتمى إلى القانون ، وجئنا إلى باريس

هو للتبحّر فى دراسة العلم ، وأنا للتبحّر فى دراسة القانون . وقد استطاع هو الجمع بين العلم والأدب والفن ، وخاصةً الموسيقى . ولم أستطع أنا التفرغ للقانون ، وجرفنى الأدب والفن جرفًا ، حتى انتهيت إلى الانقطاع لهما كلّ الانقطاع ! .

وتحدّث عن كيف كان يعلم أنه كثير التنقل المفاجئ من فندق إلى فندق ومن حيٍّ إلى حيّ ومن أسرة إلى أسرة إلى أن نزل فى باريس . وكيف رجاه أن ينقل أمتعته فى الخفاء من منزل الأسرة التى كان يقطن بينها فى ضاحية «كوربفوا» فكتب يقول :

– فذهب صديقى فوزى وهو يتعثّر خجلاً ، فقابلته ربّة الأسرة ، تلك التى كانت تصاحبه على البيانو وهو يعزف على الكمنجة ، كلما زارنى . حسبته جاء للعزف والتطريب . وهو ما جاء إلّا «للعزال» والتهريب .

كان يزورنى دائمًا فى حجرتى بشارع «بلبور» فى باريس ، الذى كان مجاورًا فى ذلك الوقت البعيد للقرافة أو المقبرة المشهورة «بيرلاشيز» .

وكان من بين أصدقائه القدامى ، أمير الشعراء أحمد شوقى وشاعر القطرين خليل مطران .

ومن المعاصرين له الدكتور طه حسين وعباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازنى والدكتور مصطفى القللى والدكتور حلمى بهجت بدوى والدكتور محمد كامل حسين ومحمود تيمور وعبد الرحمن صدقى وأحمد حسن الزيات وأحمد أمين ومحمد طاهر راشد والدكتور إبراهيم ناجى ومصطفى ممتاز .

ومن الصحفيين أنطون الجميّل وأميل وشكرى زيدان وفكرى أباظة ومحمد التابعى وأحمد الصاوى محمد ومصطفى وعلى أمين وكامل الشناوى .

ومن أهل المسرح عمر وصفى ويوسف وهبى وسليمان نجيب ومحمد عبد القدوس ومحمد بهجت .

ومن الموسيقيين . ، سيد درويش وكامل الخلعى وداود حسنى وزكريا أحمد ومحمد عبد الوهاب .

ونشأ خلاف موضوعى بينه كرئيس لاتحاد الكتاب وبين الدكتور يوسف إدريس لم يصل إلى حَدّ الخصومة ، وقد بدأ هذا الخلاف فى تلك الرسالة التى أرسلها إلى نائبه فى رئاسة الاتحاد ثروت أباظة يقول فيها :

– ما من شك فى أن من بين واجبات اتحاد الكتّاب المادية والمعنوية ، واجب التنبيه إلى السلوك اللائق لعضو الاتحاد .

ولقد دأب كاتب ينتمى إلى الاتحاد – يقصد الدكتور يوسف إدريس – على أن يضخم ذاته بالإعلان أنه خالق القصة المصرية متناسيًا الأجيال المجيدة التى سبقته غير تارك للنقاد أن يقولوا هم ذلك عنه ، ذلك إذا صحّ الزعم .

كما أنه يعلن أن ثمانين رسالة دكتوراه تخصصت فى أعماله خارج بلاده ، متهمًا صراحةً جامعاتنا بالتقصير ، إلى غير ذلك مما تكرر منه ، وعرفه عنه القراء وتندّروا به ، وهو غير مدرك له مما يجعل اتحاد الكتاب مسئولاً عن عدم إزجاء النصح له حتى لا يقتدى به بعض ضعاف الأعضاء ، وحتى يفطن إلى هذه الظاهرة وأمثالها ، مجتمعنا الآخذ فى التراخى والتغاضى عن العيوب التى تهدّد بالليونة صلابة عمودنا الفقرى الاجتماعى .

إمضاء : « توفيق الحكيم »

وتوفيق الحكيم أصغر أبناء جيله من الكتاب والفنانين .

لقد ولد فى عام ١٨٩٨ نفس العام الذى ولد فيه يوسف وهبى وأم كلثوم وروز اليوسف .

وكان يكبره وقتئذ مصطفى لطفى المنفلوطى باثنين وعشرين عامًا ، وكذلك مصطفى صادق الرافعى وجورج أبيض ، وكان الدكتور محمد حسين هيكل يكبره بعشر سنوات ، وعبد العزيز البشرى باثنتى عشرة سنة ، وسلامة موسى بإحدى عشرة سنة والدكتور طه حسين وعباس محمود العقاد ونجيب الريحانى بتسع سنوات ، وإبراهيم عبد القادر المازنى بثمانى سنوات ، وسيد درويش وأحمد رامى ومحمد تيمور وسليمان نجيب بست سنوات ، ومحمود بيرم التونسى بخمس سنوات ، ومحمود تيمور بأربع سنوات ، ومحمد كريم بسنتين وفكرى أباظه بسنة واحدة .

الحمار والعصا والبيريه

ويحب الحيوانات والحشرات والأشياء إلى درجة أنه جعل منها أبطالاً فى رواياته مثل « الحمار » فى « حمار الحكيم » و « الكلب » فى « أهل الكهف » و « السحلية » فى « ياطالع الشجرة » و « النمل » فى « بيت النمل » و « الصرصار » فى « مصير صرصار » .

وذلك إلى درجة أنه يصادق الأشياء كالثياب والعصا والبيريه .

تحدّث عن عصا الحكيم « فى مقدمة الكتاب الذى يحمل هذا الاسم بعنوان « ابنة من الخشب » فقال :

– تلك هى عصاى . عرفتها أو قل حملتها منذ عام ١٩٣٠ هى بعينها ، لم أحمل سواها قط ، منذ أن كنت وكيلاً للنيابة فى مدينة طنطا . منذ ذلك التاريخ وهى تلازمنى كأنها جزء من ذراعى ، تنتقل معى وتسير من مصير إلى مصير . لا تضجر منّى . ولا تزهد فى صحبتى . لو أنها كانت ابنةً من لحم ودم ، لقالت لى اليوم : « دعنى إنى لست من جيلك » والتفتت إلى بيتها وزوجها . ولكن عصاى لم تعصنى ، بل تبعتنى وأطاعتنى . وقاسمتنى الأيام البيض والأيام السود .

إن عصاى معى دائمًا . بحياتها الهادئة المتواضعة بجوارى . تسمع كلّ ما يدور حولى . وتهز رأسها فى يدى عجبًا أو سخرًا أو صبرًا . وتكتم كثيرًا وتهمس قليلاً . ما من شكٍّ عندى فى أنها تريد أحيانًا أن تتكلم . ولكنها تصمت أدبًا ، ؛ لأنى لم أدْعها إلى الكلام .

لقد لحظها الكثيرون من قديم . وأشار إليها أحيانًا بعض الكاتبين والراسمين وحيّاها بعض الأصدقاء بقولهم لى :

– أهى معك دائمًا لا تفارقك ؟

– نعم هى بعينها : لا أبتغى بها بديلاً ولو كان من الذهب إلا بريز ، هذه العصا البسيطة من الخشب الأبيض الزهيد . لقد هرمت واعتلّت ونخر فيها الداء . ولكنى أتناولها بالعلاج . والخوف على حياتها يخلع قلبى ، حتى كثرت فى جسدها المسامير . إنها يجب أن تعيش ؛ لأنى لا أستطيع أن أتصوّر يدى بدون يدها . تلك التى عاشت معى خير سنوات العمر .

أظن من حقّ هذه العصا ومن العرفان لها ببعض الجميل وقد نزلت منّى هذه المنزلة وبلغت من الدهر هذه السن ، أن أصمت أنا وأقدمها هى .

وأدعوها إلى الكلام هنا . تقول لنا كلّ ما يجيش بصدرها ، من شئون الناس والفكر والمجتمع .

وتحدثت عنه ، فقالت :

– كانت معرفتى به مرتبطةً بعمله فى القضاء ، فهو عندما عينوه وكيلاً للنيابة فى الأرياف ، كان يقوم لتحقيق الجرائم ، ومعه سكرتير كهل أبيّض شعره وجعل له وقارًا ، فكان رجال الأمن فى الريف من عمد وشيوخ وخفر ، يستقبلون السكرتير بالاحترام على أنه وكيل النيابة ، ويهملون الوكيل الأصلى لمظهره الشاب ويحسبونه هو المرؤوس .

فأشار بعض المجربين على صاحبنا أن يحمل عصا لتوحى بأنه هو الرئيس . إذ لا يعقل فى الريف أن يكون المرءوس هو الذى يحمل العصا فى حضرة رئيسه .

واشترانى وحملنى فى يده ، فلم يخطئه بعد ذلك العمد والخفراء . فما أن حلَّ فى مكان حتى يهرع إليه الجميع ، موقنين أنه هو وكيل النيابة .

ومنذ ذلك الوقت الذى يزيد عن نصف قرن ، وأنا ألازمه ملازمة ذراعه ، فقد أصبحت عادةً من عاداته الراسخة ، بغير مصاحبتى له واتكائه علىّ يتعثّر فى طريقه ، وخاصّةً اليوم فى شيخوخته ! .

وروى البيريه قصته معه ، ومتى ارتداه لأوّل مرة ، فقال :

– كان لقائى الأوّل فى باريس . ولم أكن أوّل ما وضع على رأسه فقد سبقتنى قبعة فيرانية اللون ، لم يلبث أن نبذها ، واستبدل بها أخرى سوداء عريضة الأطراف مما يضعه الفنانون فى مونمارتر على رؤوسهم فى ذلك العهد البعيد ، لكنها أتعبته لاضطراره إلى رفعها كلما أراد التحية إلى أن اهتدى إلىّ

أنا . أى « البيريه » .

فقد وجدنى مريحةً مثل الطاقية المصرية يستطيع أن يطويها ويدّسها فى جيبه ولا يحتاج إلى رفعها للتحية .

واحتفظ بى وأدخلنى فى مصر ، وجعل يكتب عنّى ويروّج لى حتى كثر من يلبسنى ، لما عندى من مزايا السهولة فى اللبس والرخص فى الثمن والشبه بالطاقية البلدية ، وعمّ استعمالى حتى شملت الجيش والشرطة . ولكن العجيب أنى فى باريس اليوم كدت أختفى من فوق الرؤوس . فالرؤوس الآن هناك عارية !

المليونير

سألته يومًا عن ثروته ، فقال :

– إن رصيدى بعد هذا العمر ، أقل من خمسة آلاف جنيه ! .

لكن من المنتظر أن تهبط عليه ثروة طائلة ، لتضعه فى عداد أصحاب الملايين .

كتب إبراهيم الوردانى فى بابه اليومى « صواريخ » بجريدة الجمهورية يقول :

– . . والحكاية عن أستاذنا الكبير المليونير توفيق الحكيم الذى هبطت عليه فجأة ثروة ضخمة ، يحمل سرّها ابن خالته السفير السابق نجم النوادى عبد الحميد سعود .

الحكاية تبدأ منذ نصف قرن تقريبًا ، حين اشترت جدّة توفيق الحكيم لأمه خديجة كلايوسف ثلاثة أفدنة فى أرض الدخيلة بالإسكندرية . واحتفظت بحجة

الحيازة . ثم أهملتها أو نسيتها حتى قامت حرب هتلر ، فاستولت عليها معسكرات الإنجليز .

وتمرّ السنوات ليجلوا عنها الإنجليز وتخلو الأرض ، ثم يهجم عليها القوارض من مغتصبي المساحات ، وهات يا بناء وتشييد فوقها . دكاكين وبيوت ومحطات بنزين ومنشآت وشاليهات وكازينوهات .

وتموت الجدّة – يرحمها الله – ويتغيّر النسل والخلق والأرض والحرث ولا أحد يسأل عن فدادين الدخيلة .

حتى تذكر الأمر حفيدها النشيط عبد الحميد سعود ، فنقّب وبحث وسأل عن حجة الشراء فلم يجدها ، وذهب يبحث فى أوراق ابن خالته توفيق الحكيم ، الذى سخر وهزأ من محاولاته حتى وجد أخيرًا ورقة موثقة عن إيجار رمزى للأرض دفعه الإنجليز للجدّة بما قيمته ربع جنيه عن كل فدان .

فأمسك عبد الحميد سعود بهذا الدليل ، وحاول أن يحمّس توفيق الحكيم لمشاركته فى رفع قضية ، فاستعاذ الحكيم واستنكر ، فإن كلمة قضية على مسمعه تجعله يشعر أنك ألقيت أمامه عقربة .

ومنذ ثلاثين عامًا ، تفرّغ الدؤوب عبد الحميد سعود لرفع القضايا عن تلك الأرض قضية وراء قضية . استشكال وراء استشكال . كلّ هذا دون أن يعلم توفيق الحكيم حتى تمكن أخيرًا فنجح .

منذ أسابيع فقط عام ١٩٨٠ حكمت المحكمة الاستئنافية بالإسكندرية حكمها النهائى بأن الأفدنة الثلاثة فى أرض الدخيلة حيازة خالصة للوارث الأوّل توفيق إسماعيل الحكيم . وقدّرت المحكمة قيمتها بحسب ثمن هذه الأيام بمليون ونصف جنيه .

من أجل هذا جاءت ضخامة الرسوم المستحقة التى أرعبت توفيق الحكيم .

ولما انكشف هذا السر فى رواق الحكيم بحضورى أنا وإبراهيم فرج المحامى وعبد الحميد سعود السفير السابق ، التوى عنقه نحوى فى نظرة مذعورة مستغيثة ، مستهولاً أن أنشر الخبر على الناس ، فإنه والله لم يقبض مليمًا بعد .

ثم رضخت ملامحه إلى راحة اللامبالاة . ثم تنازل وأعطانا شكل امتعاض فلسفى تمثيلى له بريق الذهب عيار (٢٤) ثم قال :

–يالها من مليونيرية سخيفة تأتينى فى التسعين . بالله ماذا أفعل بها بلا زوجة ولا ولد ولا صحة ؟ !

قلت مداعبًا :

– سيدى المليونير توفيق الحكيم . هيا ووزعها اشتراكيًّا خلابًا على ألوف الفقراء من قرائك .

ردّ مستعيذًا :

– كف ما أقساك ، فلماذا أزيد الفقراء واحدا ؟

وقد سألت الحكيم عن رواية الوردانى ، فأكّد لى صحة ما قال ، مع تصويب عدد الأفدنة ، وهى فدانان فقط ! .

تكريم وتقدير

لقد ظفر بكلّ مظاهر التكريم والتقدير ، على مستوى الدولة والهيئات الرسمية والأدبية والفنية ، وعلى المستوى العالمى .

– رتبة البكوية عام ١٩٥١ .

– جائزة مجمع اللغة العربية المعروفة باسم جائزة فؤاد الأول وقيمتها ١٠٠٠ جنيه فى نفس العام .

– قلادة الجمهورية من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ١٩٥٨ .

– جائزة الدولة التقديرية (٢٥٠٠ جنيه) ١٩٦١ .

– الدكتوراة الفخرية من أكاديمية الفنون ١٩٧٥ .

– قلادة النيل العظمى من الرئيس الراحل أنور السادات ١٩٧٩ .

– أطلق اسمه على مسرح محمد فريد بشارع عماد الدين ثم رفع بناءً على طلبه .

– أهدته الإسكندرية منارها ومفتاحها عام ١٩٨٠ .

– إنشاء « رواق الحكيم »

وعلى المستوى العالمى :

– وسام من فرنسا « الذى ردّه إليها أحتجاجًا على موقفها غير الإنسانى من الجزائر عام ١٩٦١ » .

– رشح لنيل جائزة نوبل عن مسرحية « السلطان الحائر » ١٩٥٩ .

– وضع اسمه فى فرنسا بين أسماء أهم الروائيين العالميين بين عامى (١٩٣٦ – ١٩٥٥) من أمثال سارتر ومالرو وشولو خوف وموراڤيا .

– اختارته جريدة مارك توين الأمريكية ليحمل لقب فارس فى المكان الذى خلا بوفاة الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٧٤ .

– جائزة أحسن أديب ومفكر من المركز الدولى للثقافة بحوض البحر الأبيض المتوسط عام ١٩٧٧ وقيمتها (٥٠٠ جنيه) عام ١٩٧٧ .

– وفى عام ١٩٨٢ أعيد ترشيحه لنيل جائزة نوبل ، على مستوى الدولة

والهيئات العلمية والثقافية .

أما المناصب التى شغلها ، بعد منصب مدير عام دار الكتب ، فهى .

– فى عام ١٩٥٦ عين عضوًا متفرغًا بدرجة وكيل وزارة فى المجلس الأعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية .

فى عام ١٩٥٩ اختير مندوبًا مقيمًا لمصر فى هيئة اليونسكو فى باريس .

– فى عام ١٩٦٢ عين مقررًا للجنة جوائز الدولة فى المجلس الأعلى للفنون والآداب – ثم مقررا للجنة الآداب والفنون فى المجالس القومية المتخصصة ، ورئيسًا للهيئة العالمية للمسرح .

– فى عام ١٩٧٦ انتخب رئيسًا لاتحاد الكتاب الذى أصبح فيما بعد رئيسه الفخرى ، ثم رئيسًا لنادى القصة .

– لمّا حلّ المجلس الأعلى للفنون والآداب عام ١٩٨١ وحلّ مكانه المجلس الأعلى للثقافة ، كان فى طليعة أعضائه البارزين .

– رأس مجلس الشورى فى جلسة افتتاحه عام ١٩٨١ وفى دورته الثانية ١٩٨٣ .

ويشغل منذ عام ١٩٦١ منصب عضو مجلس إدارة مؤسسة « الأهرام » ثم أصبح الأب الروحى لتلك المؤسسة الصحفية العريقة فقد عيّن فى تشكيل مجلس إدارتها عام ١٩٨١ رئيس شرف الأهرام .

والمسيرة فى سلك الوظيفة مازالت مستمرة فى خدمة القضاء والصحافة والثقافة منذ نصف قرن وست سنوات منذ عام ١٩٢٨ .

– صمم له المثال الدكتور فاروق إبراهيم تمثالاً نصفيًا من البرونز .

الحياة بعد الثمانين

ماذا يصنع الكاتب فى حياته إذا جاوز الثمانين ؟

لقد تحدث فى ذلك بمناسبة رحيل فيلسوف العصر جان بول سارتر فقال :

– عندما أسمع فى عيد ميلادى من يقول لى :

– عقبال ميت سنة ، أفزع وأقول : وماذا أصنع بعد هذه المدة ؟ فلم يعد عندى ما أصنعه بحياتى . إن شعورى بالفراغ لشديد ! .

فردّ عليه الكاتب الأديب ثروت أباظة بهذه الكلمة :

– أستاذنا توفيق الحكيم .

– لنا نحن أبناء أدبك عتب عليك . . فأنت لست ملكًا لنفسك بقدر ما أنت ملك لنا . ونحن لا نريد منك أن تكتب شيئًا ، فقد كتبتنا نحن جميعًا ، كتبت كلّ الأجيال التى جاءت قبلنا والذين نعتبرهم أساتذتنا ، وكتبتنا نحن تلاميذ تلامذتك ، وكتبت من جاء بعدنا . وكتبت كلّ من سيجىء .

ولا نريد منك اليوم إلا أن نراك نورًا يملأ ساحة العالم العربى ، ويرى فيك كلهم الصرح الذى فى ظلّه نشأوا ، والنبع الذى من معينه استقوا وسقوا ، فلا تنتظر هذا القطار البغيض ، بل انظر إلى كلّ هؤلاء الأدباء الذين يملأون الساحة العربية وافرح بكل كلمة شريفة يكتبونها ، واعلم أنها بقلمك أنت .

أستاذنا الحكيم :

عش ألف عام ، ولا تكتب شيئًا ، وحسبك وحسبنا منك أجيال الأدباء التى كتبتها » .

وقد كنت فى زيارة الحكيم يوم نشرت كلمة ثروت أباظة فى الأهرام. فقرأها مرةً ومرتين. وقال :

– عجيبة !

فقلت :

– ما وجه العجب ؟

قال :

• ذلك التعبير الذى يقول فيه ثروت أباظة : « لقد كتبتنا نحن » ولم يقل « كتبت لنا ».

ويسير فى حياته الآن على نظام محدّد ، فلا يأوى إلى فراشه قبل الحادية عشرة ويستيقظ فى السادسة صباحًا على إذاعة نشرة الأخبار. ويعدّ بنفسه الإفطار المكون من الشاى وقطعة الجبن وكسرة الخبز وبيضة واحدة.

ثم يرتدى ملابسه ويجلس فى الشرفة المطلّة على النيل ، ويتصفّح صحف الصباح مع فنجان القهوة.

ويغادر البيت فى العاشرة صباحًا إلى الأهرام سيرًا على الأقدام.

ويعيش على الطعام المسلوق واللحوم البيضاء والفول النابت والمدمس المقشور وبياض البيضة ولا يأكل اللوبيا والفاصوليا الجافة لأنها تسبب له عسر الهضم. وجبته المفضلة فى الغداء ثلاث بصلات مسلوقة وثلاث شرائح شواء بحجم الشلن وبرتقالة وفى العشاء الزبادى.

وإذا كان قد عاش حياته على نظام الكهنة المصريين فى الزهد فى الطعام الدسم ، فإنه كان فى بعض الأوقات يتذوّق أطايب الطعام ، كالأرز بالخلطة وكشك أم إسماعيل اللذين كان يتذوقهما من يد المرحومة زوجته. وكذلك كنافة

رمضان بالمسكرات .

وليس عنده الآن الإحساس بالشيخوخة ، لأنه – كما يقول – لم يكن عنده الإحساس بالشباب .

ولا يزعجه شيء غير المرض النهائى الذى يهاجم الإنسان بالعجز عن الحركة – لا قدّر الله – ويجعله عبئًا على الآخرين .

لكنه يخشى الغد . . يخشى النهاية ، ويقول :

– أنا الآن فى سن « يالله حُسْن الختام » . كلّ ليلة آوى فيها إلى فراشى أقول لنفسى : « ياترى هل سأرى الغد أم لا ؟ » .

وعندما أفتح عينىّ على الغد فى الصباح ، أحمد الله عليه ، وأقول هذا يوم آخر كسبناه !

ومن أجل هذا لم يعد عندى تخطيط لعمل أدبى جديد .

لكن قد أكتب ، فالشمعة تتوهّج قبل الانطفاء . إلا إذا كانت من هذا النوع الزهيد الذى يذبل قبل الانطفاء .

وختم حديثه بقوله .

– يموت الزمار .

الحياة والرسالة

ولا شك أنه يشكو الآن من الوحدة بعد فجيعته فى زوجته وابنه الوحيد إسماعيل اللذين اختطفها القدر فى سنتين متتاليتين فى عامى ١٩٧٧ و١٩٧٨ .

لكنه يهنأ بابنته الوحيدة زينب التى أطلق عليها اسم « السيدة زينب »

ويدللها باسم حبيبته « سوزى » ويهنأ كذلك بحفيديه الصغيرين منها وهما « إسماعيل » الذى يحمل اسمى جدّه وخاله و « مريم » التى تحمل اسم « مريم العذراء »

وقد أدلى أخيرًا بحديث إلى « الأخبار » تكلّم فيه عن الموت ويقول : إن فكرته تلّم به كثيرًا تلك الأيام ، وإنه لا يجد من نفسه إقبالاً على الكتابة ، فقد كتب بما فيه الكفاية . وقال : إن الحياة يتغيّر طعمها لأنها لم تسر معه خلال السنوات الأخيرة على نحو يشجعه على طلب المزيد ، فقد تزوّج وسعد بزوجة وأنجب ولدًا ، ثم استأثر الله بالزوجة ثم بالولد ، وتلاشى بذلك جزء كبير عزيز عليه من نفسه كان يصله بالحياة . .

وقد ناقشة الدكتور حسين مؤنس فى هذا الحديث فى مقال منشور على صفحات مجلة « أكتوبر » .

فقال الحكيم :

– إن كلّ إنسان يخلق وله رسالة عليه أن يؤديها . فإذا أدّاها فقد انتهت حياته الفعلية ، فإما مات ، وموته فى هذه الحالة يكون أمرًا طبيعيًّا ومفهومًا ، وإما استمر فى الحياة بعد ذلك . إما دون أن يقوم بعمل جديد ، وفى هذه الحالة تكون حياته أطول من وظيفته ، وإما أن يدخل فى تجربة جديدة ، تختلف عن تجاربه الماضية ، . . ومعنى ذلك أنه تستجّد له حياة أخرى .

ويضرب المثال على ذلك ببعض مشاهير الرجال ، الذين تطابقت رسالتهم مع عمرهم ومن طالت حياتهم بلا معنى بعد أداء تلك الرسالة ، فيقول :

انظر إلى موتسارت مثلاً ، لقد توفّى فى الخامسة والثلاثين من عمره ، ولكنه كان قد أتّم عمله الموسيقى قبل موته ، ووضع نفسه بذلك فى عداد الخالدين ،

فهذا رجل تطابقت رسالته مع عمره .

وخذ مثلاً الشاعر بول فيرلين الذى كان من أعاظم الشعراء الفرنسيين فى النصف الثانى من القرن الماضى . لقد عاش ٥٢ عامًا وأدّى رسالته وهو فى الخامسة والعشرين وكان أفضل لفيرلين لو أنه مات وهو فى تلك السن المبكرة . أما حياته بعد ذلك فزيادة أضرّت باسمه وسمعته ، وهذا مثال لرجل انتهت رسالته ، وما بقى من حياته كان هباء .

وهل هناك مثل لهذا أبلغ من حياة الإسكندر الأكبر لتطابق الرسالة مع العمر؟ فهذا الرجل لم يعش أكثر من ٣٣ سنة فتح فيها الدنيا المعروفة فى أيامه من مقدونيا إلى آسيا الصغرى إلى الشام ومصر والعراق ، ثم هزم الفرس فى معركة حاسمة وفتح إيران وأفغانستان ودخل الهند . وهناك بدأ ينظّم دولته الواسعة على أساس المساواة بين الشعوب ، لا غالب ولا مغلوب . لا فوارق بين الشعوب . كلّ الناس سواسية كما علّمه أستاذه أرسطو . هنا ولإسكندر فى أوج مجده ، وقد أتم عمله يدركه الموت . لقد أتم عمله وحياته معًا وتطابق الاثنان .

وعاش الشاعر الألمانى جيته ٨٣ سنة ولو مات وهو فى الخامسة والعشرين حين نشر روايته المشهورة « آلام فرتر » لظلّ اسمه خالدًا فى التاريخ .

لكنه عاش وأنتج إنتاجًا رائعًا بعد ذلك . فكتب غرة أعماله « فاوست » وعمره ٣٨ سنة وآخر دواوينه العظيمة وعمره ٦٢ سنة . . وتطابقت رسالته مع عمره إلى ذلك الحين . أما حياته بعد ذلك فقد كانت كلها خسارةً وأخطاءً شانت اسمه وصورته . ففى الخامسة والسبعين أحبّ بنتًا فى العشرين . ووقع فى حماقات ماكان أغناه عنها ، ثم أفسد حياته الزوجية .

هذا مثال للحياة التى تطول أكثر من الرسالة ، فتكون بقية الحياة زيادةً فى

العمر بلا معنى .

ويعنى بذلك أنه أتمّ رسالته ، وطالت حياته بعد ذلك بلا معنى ، أى أنه يعيش – بلغة الكرة – فى الوقت الضائع .

أبدًا يا أستاذنا إنك لا يمكن أن تعيش فى الوقت الضائع ، بعد ما تركت من رصيد أدبى وفنى وفكرى عظيم .

فقد قال له الدكتور حسين مؤنس :

– إن مثلك يا أستاذنا لا تنتهى رسالته أبدا .

وإذا كان قد قرر اعتزال الكتابة فإنه أدرك من تلقاء نفسه أهمية وجوده بلا قلم . فقال :

– أظن أن هذا ينطبق أكثر على رجل مثل الأستاذ لطفى السيد ، فإن رسالة رجال مثل لطفى السيد ، هى وجوده نفسه . إنه يجلس ويتكلم ، فيكوّن لكلامه الأثر البعيد . لقد كتب وترجم ، ولكن مؤلفاته ومترجماته ليست رسالته ، ورسالته هى شخصه وكلامه وذهنه المتجدّد ، مثله فى ذلك مثل جمال الدين الأفغانى ، فإن مؤلفاته أقلّ بكثير من تأثيره فى تاريخنا الفكرى .

وإذا كان هذا المثال ينطبق عليك يا أستاذنا ، فإن لمؤلفاتك المائة تأثيرًا كبيرًا على كلّ الأجيال التى قرأتك ومازالت تقرؤك .

وسوف تظلّ حياتك منارةً مضيئةً فى عالم الفكر الحديث . ولا يمكن أن تعيش أبدًا فى الوقت الضائع .

المتنبىء

وقد اشتهر ، بأنه « متنبىء » مكشوف عنه الحجاب كأولياء الله الصالحين ، نظرًا لصدق نبوءاته التى كثيرًا ما تتحقق فى الحال أو بعد حين . كهاتين النبوءتين اللتين حدثتك عنهما عندما كان طفلاً دون العاشرة .

وحين كان المجتمع المصرى فى عام ١٩٢٧ الذى كتب فيه « عودة الروح » مجتمعًا زراعيًّا ، غير صناعى ، إلا فى القليل النادر الذى بدأ وقتئذ بإنشاء شركات بنك مصر ، تنبّأ الحكيم بمستقبل مصر الصناعى ، وقال عن المصريين :

– ما أعجبهم شعبًا صناعيًّا غدًا .

وتنبأ فى كتاب « عصفور من الشرق » الذى صدر عام ١٩٣٨ بقيام حروب صليبيّة جديدة ، حيث كتب يقول :

– وإنى لأتنبأ منذ الآن بوقوع نوع من « الحروب الصليبية » بين « الماركسية » و « الفاشتستية » تحشد فيها الدهماء ضدّ الدهماء وتتناثر فيها الجثث وتتطاير الأشلاء ! .

ثم أشار إلى تلك النبوءة فى كتاب « تحت المصباح الأخضر » الذى صدر عام ١٩٤٢ وقال :

– لقد نشرت فيما يظهر أشياء منذ سنوات لم ينبهنى إلى أهميتها إلاّ الهر هتلر منذ شهرين . فقد أذاع نداءً دوّى صداه فى أرجاء أوربا يستنهض به شعوبها إلى ما سمّاه « الحروب الصليبية » ضدّ « الماركسية » أو « البلشفية » ثم عبّأ الملايين من البشر للزحف على روسيا التى استقبلته هى الأخرى بملايين من البشر ،

وكانت تلك أوّل مرة فى نظر صحف العالم أطلقت فيها اسم « الحروب الصليبية » على هذه الملحمة الإنسانية الكبرى .

هنا تذكرت أنى أنا توفيق الحكيم الكاتب المصرى ، كنت ولا فخر أوّل من أطلق هذا الاسم على هذه المعركة التى تنبأت بها قبل وقوعها بأربع سنوات .

وفى مسرحية « تلميذ الموت » المنشورة فى كتاب « سلطان الظلام » عام ١٩٤١ تنبّأ بنهاية هتلر قبل انتحاره بأربع سنوات فى عام ١٩٤٥ .

وتنبّأ فى كتاب « شجرة الحكم » الصادر عام ١٩٤٥ بقيام ثورة ٢٣ يوليو قبل موعدها بسبع سنوات ، وأطلق عليها اسم « ثورة مباركة » على نحو ما ذكرت فى باب « الفكر السياسى » .

وأطلق نبوءتين فى عام ١٩٥٧ تحققتا فيما بعد ، فى مسرحيتين صدرتا فى هذا العام ، الأولى « أشواك السلام » التى تنبأ فيها بالسلام ، الذى تحقق بعد ذلك بعشرين عامًا ، والثانية « رحلة إلى الغد » التى تنبأ فيها بثورة غذائية تحققت بعد ذلك بنحو عشرين عامًا أيضًا ، مع إحلال السلام .

حرب أم سلام بين العرب وإسرائيل

وكان لابدّ لى وأنا أجلس إلى جوار مفكرنا « المتنبئ » المكشوف عنه الحجاب الذى أوتى القدرة على الكشف عن أستار الغيب ، أن أوجّه إليه سؤالين هامّين يشغلان الأذهان فى المنطقة العربية وفى العالم أجمع .

فقلت :

– ما هو مستقبل السلام بين العرب وإسرائيل ؟

فقال :

– إن هذا يتوقف على مدى فهم إسرائيل وسلوكها فى المنطقة . إذا فهمت أن بقاءها الدائم مبنى على صداقتها الحقيقية للعرب ، مما يجعلهم يشعرون بأنها نافعة وليست ضارة .

أما إذا شعر العرب أن فى وجودها ضررًا ، وأن بقاءها يهدّدهم بالخطر فإن الإجيال القادمة القادرة منهم ، سوف يكون من السهل عليهم فى المستقبل إزالة هذا الضرر .

لكنهم إذا شعروا بأنها نافعة لهم فإنهم سيكونون أوّل المحافظين على بقائها .

وأضاف قائلاً :

– وأعتقد أن التجاء إسرائيل إلى سياسة العنف من أجل الحفاظ على بقائها بالقوّة معناه أن تفتح على نفسها أبواب الجحيم .

الحرب الثالثة آتية

وكان السؤال الثانى :

– هل ستقوم حرب ثالثة ؟

فقال :

– إذا لم تقم عاجلاً ، فلابدّ أن تقوم آجلاً . فهذه سنّة الطبيعة ، فإذا تكاثر شعر الرأس فلابدّ أن يجتثّه الحلاّق ، وكذلك إذا تكاثر الناس ، فلابدّ أن يحصد الزائد حلاّق آخر ، وهو منجل الحرب أو الوباء .